الفصل التاسع عشر
المكتبات في العالم الجديد حتى الثورة الأمريكية

يعد اكتشاف القارة الأمريكية من الحوادث الكبرى في التاريخ العالمي، ويعد هذا الحادث الذي تم سنة ١٤٩٢م إيذاناً بانتهاء العصور الوسطى بما تحمله من صفات وما تمتاز به من مميزات، وابتداء العصور الحديثة بما تحفل به من حسنات وما تنضح به من مساوئ. كما أن هذا الاكتشاف كان أولى ثمرات عصر النهضة المبكرة ومفتتحاً لعصر طويل من عصور الاكتشافات الجغرافية وما رافقها من حروب وتوسع استعماري اشتركت به أغلب دول أوروبا الغربية كفرنسا وإنكلترا وهولندا وإسبانيا والبرتغال. وكان ذلك التاريخ بداية لتأسيس الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية الكبرى كالإمبراطورية البريطانية والفرنسية والهولندية، تلك الإمبراطوريات التي بلغت أوج اتساعها في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وزال أغلبها في النصف الثاني من هذا القرن.

ولقد اختلف استعمار أوروبا لأمريكا عن استعمارها الحديث لأفريقيا وآسيا وغيرهما من أصقاع الأرض. ذلك ان استعمار أوروبا لأمريكا كان استعماراً سكنياً، إذ تقاطر سكان انكلترا وأوروبا للسكن في القارة الأوروبية، ولا سيما في الزمن المبكر من اكتشافها. أما الاستعمار الأوروبي لأفريقيا وآسيا فكان استعماراً سياسياً اقتصادياً بالدرجة الأولى. وعندما نتحدث هنا عن الاستعمار فإننا نقصد الاستيطان الذي يهدف إلى إزالة الشعوب الأصلية وإحلال شعوب البلد المستعمر محلها.

لقد كان استعمار أمريكا نتيجة للاضطرابات الدينية التي حدثت في أوروبا إثر الإصلاح الديني وما رافقه من حروب وثورات وفتن، كذلك كان نتيجة لنمو التجارة وبروز الرأسمالية ونهوض الطبقة الوسطى والدراسات العلمية والتقدم الفني الذي حصل آنذاك لأول مرة في أوروبا.

لقد أتى أوائل المعمرين الانكليز واستقروا على الساحل الشرقي للولايات المتحدة

الأمريكية مدفوعين بدوافع كثيرة. ولقد كانت الأرض هي المصدر الرئيسي للثروة في كل مستعمرة. ولقد اختلفت أسس توزيع الأراضي على المعمرين وانتشرت المزارع على طول المجاري المائية. ولم يتمركز السكان في قرى وكانت المواصلات صعبة ولذا أصبحت الأسرة هي الوحدة الاجتماعية والاقتصادية .

ولقد توزع القوم في المستعمرات الشمالية في ماسا شوسيتس وانكلترا الجديدة في مدن صغيرة.

وكانت المدارس متاحة للجميع، أما المستعمرات الوسطى فقد اهتمت بالتجارة أكثر من اهتمامها بالزراعة وجذبت إليها أناساً مختلفي النزعات والمشارب. وعلى الرغم من الخلافات بين المستوطنين إلا أنهم تشابهوا في مطامحهم وأحلامهم وسلوكهم وخاصة في موقفهم من التعليم.

وإذا أطلقنا القول بالنسبة للقارة الأمريكية ولم نقصره على الولايات المتحدة الأمريكية أمكننا أن نقول إن أول مكتبة أسست على أرض أمريكية هي تلك التي أسستها جمعية الأوغسطيين الإسبان سنة ١٥٣٧م في مكسيكو وذلك من أجل استعمالهم الخاص. وأهم منها تلك التي أوجدها الدومينيكانيون وألحقوها بجامعة سان ماركوس في ليما عاصمة البيرو سنة ١٥٥٠م .

أوائل المكتبات في العهد الاستعماري

لقد كانت الكتب من أثمن الأشياء التي أحضرها معهم المهاجرون من وطنهم إلى المستعمرات الجديدة. ولقد أثر الذوق الأدبي والاهتمامات الخاصة للمستوطنين وتحكم في نوع الكتب التي أحضروها معهم. ومع ذلك فقد كان أغلب الكتب المجلوبة ذا طبيعة دينية وعظية أخلاقية، ومع ذلك وجد كتب طبية وقانونية وتعليمية وزراعية ومعاجم وموسوعات وبعض الكتب التاريخية والسياسية والعلمية والكلاسيكية. وقد وجد في الولايات المتحدة في أوائل العهد الاستعماري أنواع ثلاثة من المكتبات : المكتبات الخاصة ومكتبات الكليات ومكتبات الاعارة والاشتراك والاجتماعية. ولقد اتبعت الكليات في أمريكا منذ تأسيسها النظام المتبع في أوروبا. لقد وصلت فكرة المكتبة إلى أمريكا من أوروبا عن طريق إنكلترا. فهناك أخبار موثوقة أنه في سنة ١٦٢٩م جلب المعمرون البوريتان في مستعمرة ماساشوسيتس من انكلترا مجموعة من الكتب أغلبها ديني، ولا أحد يعلم لم

أحضرت هذه الكتب ولماذا استعملت؟.

المكتبات الخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية في العهد الاستعماري.

لقد ظلت الكتب تستورد من انكلترا وأوروبا فترة طويلة من الزمن. وعلى الرغم من أنه تأسست مطبعة في المستعمرات سنة ١٦٣٩م إلا أن الكتب ظلت تستورد من انكلترا وأوروبا بعد ذلك لمدة طويلة.

إن أوائل المكتبات الخاصة وجدت بشكل خاص في ولاية ماساشوسيتس. فقد توفي سنة ١٦٤٣م أحد زعماء رجال الدين في تلك الولاية وترك مكتبة خاصة مؤلفة من ٤٠٠ مجلد. كما وأن حاكم الولاية وليام برادفورد Bradford امتلك آنذاك مكتبة ضمت حوالي ٨٠ مجلداً. وهناك أخبار عن آخرين امتلكوا مجموعات خاصة من الكتب. كان أغلب هذه الكتب دينياً، ولكن وجد بعض الكتب في التاريخ والرحلات والعلوم السياسية، وقليل من الأدب والكلاسيك، وبعض الكتب العلمية في الزراعة والعلوم العسكرية، وقد امتلك الأطباء ورجال الدين الذين سكنوا الولايات الشمالية مكتبات صغرى يتراوح عددها بين بضعة عشرات إلى بضعة مئات. وأوجد جون وينثروب Winthrop حاكم ولاية كونيكتكوت أكبر مجموعة من الكتب وجدت في المستعمرات في القرن السابع عشر، إذ بلغ عددها ما ينوف على ألف كتاب سنة ١٦٤٠م. وقد توسعت هذه المكتبة بعد موته واعتنى بها ابنه وحفيده من بعده. وأخيراً وجدت بقايا هذه المكتبة ملجأ لها في مكتبة جمعية نيويورك في القرن الثامن عشر. وتدل بقاياها على أنها متنوعة في محتواها.

ولقد امتلك أغلب رجال المهن في القرن السابع عشر في انكلترا الجديدة مجموعات صغرى من الكتب وكذلك فعل المزارعون والتجار وبعض صيادي السمك. وتعد المكتبة الخاصة التي امتلكها القسيس والمؤلف كوتون ماذر Mather في أواخر القرن السابع عشر أكبر مكتبة خاصة في إنكلترا الحديثة. فقد ورث مكتبة عن والده ولكن الولد نماها وطورها حتى بلغ عدد كتبها سنة ١٧٠٠م حوالي ٢٥٠٠ مجلد ووصلت قبيل وفاته سنة ١٧٢٨م إلى ٤ آلاف مجلد. وعلى الرغم من أن الموضوعات الدينية تشكل العمود الفقري لمحتويات هذه المكتبة، إلا أنه وجد فيها أعمال مهمة في التاريخ والجغرافيا والفلسفة. كذلك وجد في مدن انكلترا الجديدة محال كثيرة لبيع الكتب المجلوبة من انكلترا واشتهرت خاصة بوسطن بمحال كتبها الواسعة النشطة.

كذلك وجد في القرن السابع عشر في فرجينيا مكتبات خاصة، وبشكل خاص في بيوت موظفي الحكومة والمحامين ورجال الدين وكبار المزارعين. ولقد زاد عدد المكتبات الخاصة في فرجينيا في أواخر القرن السابع عشر واتسعت محتوياتها. فقد شغلت مكتبة وليام فيتزبورغ غرفة كاملة وذلك سنة ١٦٩٠م.

كذلك ترك القسيس فرنسيس ماكيمي عند موته مكتبة حوت ٩٩٢ كتاباً. وهناك كثير من الوصايا التي تنص على وجود عدد لا بأس به من المكتبات الخاصة في فرجينيا خلال القرن السابع عشر. وقد تنوعت محتويات هذه المكتبات وتدل على ارتفاع نسبة التعلم بين قسم من السكان.

وقد أصبحت المكتبات الخاصة خلال القرن الثامن عشر أكثر انتشاراً من ذي قبل وخصوصاً بين أصحاب المهن الحرة وموظفي الدولة وكبار أصحاب المزارع في الجنوب. كذلك وجد عدد لا بأس به من المكتبات الخاصة المهمة في ولاية انكلترا الجديدة في القرن الثامن عشر، لعل أشهرها المكتبة التي أسسها توماس برينس Prince وهو قسيس من مدينة بوسطن وتخصص في دراسة تاريخ انكلترا الجديدة، لذا نرى هذا الموضوع منعكساً بكل وضوح في مكتبته. وقد أودعها قبيل موته سنة ١٧٥٨م في الكنيسة العتيقة الجنوبية في بوسطن وقد أصبحت ملكاً لمكتبة بوسطن العامة وتشكل قسماً مهماً من محتوياتها. ولقد وجد في المستعمرات الوسطى عدد من أهم المكتبات الخاصة، منها مثلاً مكتبة ريتشارد ستوكتون من ولاية نيوجرسي، وتعد من أهم المكتبات الخاصة، وقد أحرق الانكليز بيت صاحبها والمكتبة لأنه كان عدواً لإنجلترا وأحد موقعي إعلان الاستقلال، لذا فقد بيته ومكتبته سنة ١٧٧٧م إبان حرب الاستقلال.

وتعد المكتبة الخاصة التي امتلكها جيمس لوغان Logan من فيلادلفيا الأولى من نوعها في المنطقة.

فقد كان حاكماً في بنسلفانيا ورئيساً للقضاة فيها وجمع مكتبة حوت أكثر من ثلاثة آلاف كتاب قبيل موته سنة ١٧٥١م. وكانت غنية بالرياضيات والعلوم والفلك والتاريخ والكلاسيك. كذلك أسس بنيامين فرانكلين مكتبة خاصة به في فيلادلفيا وصل عدد كتبها عند وفاته سنة ١٧٩٠م إلى أربعة آلاف مجلد تحوي كثيراً من الموضوعات.

وإن أشهر مكتبة خاصة في الجنوب في أواخر العهد الاستعماري هي مكتبة وليم بايرد

الثاني Byrd II من فرجينيا وقد بدأ أبوه عملية تأسيس المكتبة ولكنه هو الذي وسعها حتى وصلت عدة كتبها عند موته سنة ١٧٤٠م إلى حوالي ٤ آلاف مجلد. وقد حوت هذهالمكتبة بشكل رئيسي التاريخ والآداب الكلاسيكية، إلى جانب الأدب الانكليزي والقانون والعلوم والدين والأدب الفرنسي.

ولا ننسى ونحن نبحث هذا المكتبات أن ندرس بشيء من التمعن مدى استحقاق هذه المجموعات من الكتب لاسم مكتبة، ذلك أن أية مجموعة من الكتب، مهما يكن حجمها، ليس من الضروري أن تكون مكتبة. ولكن إذا تم اختيار الكتب بشيء من العناية ورتبت بطريقة منهجية منطقية واستعملها صاحبها أو سمح لغيره باستعمالها، عندئذ يمكن أن تسمى هذه المجموعة مكتبة بالمعنى المتعارف عليه.

ولقد دمر قسم كبير من المكتبات الخاصة أو أحرق أو تفرق خلال حروب الثورة الأمريكية. فقد دمر الإنكليز قسماً كبيراً من مكتبات الثوار الوطنيين الذين طالبوا بالانفصال عن إنكلترا. وبالمقابل فقد صودرت مكتبات خاصة كثيرة كان يمتلكها أشخاص موالون لإنكلترا أو بيعت الكتب بأوكس الأثمان.

مكتبات المدارس والكليات

لقد اهتم أوائل المستوطنين بالتعليم والتربية والثقافة. وإن هذا الاهتمام المبكر يكشفه اهتمامهم بتأسيس المدارس الثانوية والكليات التي كانت المكتبات والكتب أقساماً مهمة منها. ولقد تبرع كثير من الحكام والشركات والأفراد بالمال والكتب والهبات من أجل إنشاء هذه الكليات واستمرارها. لقد نجحت جهود مستعمرة ماساشوسيتس في تأسيس كلية على حين لم تنجح جهود مستعمرة فرجينيا في تأسيس كلية في أوائل القرن السابع عشر. ويمكن القول بثقة تامة إن هذه الكلية في ماساشوسيتس أول كلية أمريكية رأت النور مع مجموعة من الكتب. فقد خصصت المحكمة الرئيسية في ماساشوسيتس سنة ١٦٣٦م مبلغ ٤٠٠ جنيه لتأسيس كلية أو مدرسة لتخريج رجال دين متدربين دون إرسالهم إلى إنكلترا. وبعد سنتين توفي في إنكلترا جون هارفارد وهو رجل دين مثقف وأوصى بمجموعة كتبه البالغ عددها ٤٠٠ مجلد وبأوقاف صغيرة إلى الكلية الجديدة. وقد سميت الكلية باسمه. وقد نمت مكتبة الكلية ببطء وأتاها عدد من الهدايا وصدر لها أول فهرس مطبوع سنة ١٧٢٣م ووصل عدد كتبها آنذاك إلى أكثر من ٣٥٠٠ مجلد. وقد

شب حريق هائل سنة ١٧٦٤م دمر كامل المجموعة الكتبية فيها تقريباً. ولكن لم يلبث أن هب لمساعدتها كثير من المؤسسات وكثير من الناس وعادت سنة ١٧٧٥م إلى حجمها القديم حوالي ٥٠٠٠ مجلد. ووصل عدد كتبها سنة ١٧٩٠م إلى أكثر من ثلاثة عشر ألف مجلد.

وقد جمع للكلية بعض الكتب وألحق بها مكتبة صغيرة وأتتها هبات صغيرة من الكتب من أفراد كثيرين. ومع ذلك لم يصل عدد كتب المكتبة إلى ألفي كتاب عشية نشوب الثورة الأمريكية ولم يكن يسمح لأحد باستعارة الكتب. وأعضاء هيئة التدريس هم الوحيدون الذين سمح لهم باستعمال الكتب إلى حد ما.

هذا وإن جامعة ييل التي تأسست سنة ١٧٠٠م إنما تكونت في الواقع حول مجموعة من الكتب، إذ اتفق أحد عشر من رجال الدين ومعهم العميد على إنشاء كلية في مستعمرة كونيكتيكت سنة ١٧٠٠م. أحضر كل عضو منهم عدداً من الكتب... وحينما طرحوها على المنضدة ردد كل واحد هذه الكلمات «إني أهب هذه الكتب لإنشاء كلية في المستعمرة». وقد وصل عدد الكتب في العقد التالي إلى ١٠٠٠ كتاب. وقد استلمت المكتبة عدداً من الهبات القيمة من الكتب، فقد منحها أحد القسس واسمه إليهو ييل Yale ٣٠٠ مجلد سنة ١٧١٤م وسميت الجامعة باسمه منذ ذلك الزمن اعترافاً بفضله. ووصل عدد كتبها سنة ١٧٤٢م إلى ٢٥٠٠ كتاب. ووصل عدد كتبها سنة ١٧٦٥م إلى أكثر من خمسة آلاف كتاب القسم الأكبر منها إلهيات مع وجود أعداد لا بأس بها من التاريخ والآداب الكلاسيكية والفلسفة والرياضيات. ولم يكن بين محتوياتها إلا عدد قليل جداً من الكتب التي نشرت في أمريكا.

ولقد تأسس في المستعمرات الأمريكية، قبل الثورة، كليات وجامعات أخرى، لعل أهمها كلية نيوجرسي وجامعة كولومبيا وغيرهما، ولكن قسماً كبيراً من مكتباتها دمره البريطانيون أثناء حروب الثورة. ولقد تضررت جميع مؤسسات التعليم العالي أثناء حروب الثورة. وكان التقدم بطيئاً بعد صلح باريس سنة ١٧٨٣م. ولم يؤسس إلا عدد محدود من الكليات الجديدة. وقد ظل أغلبها يتبع التقاليد الموروثة عن العهد الاستعماري القاضية بفتح المكتبة ساعات قليلة في الأسبوع، والتضييق في استعمال الكتب.

ولقد تأسست الكليات ومكتباتها حسب نموذج معترف به جاهز، هو النموذج

الإنكليزي الأم، وكانت مجموعات الكتب في الكليات الأمريكية مشابهة مثيلاتها في الكليات الإنكليزية. وكانت كتب الإلهيات تمثل نسبة كبرى من كتب المجموعة، ثم بدأت هذه النسبة تخف ليحل محلها كتب في القانون والأدب والعلوم والسياسة. وقد حصلت مكتبات الجامعات آنذاك، على قسم كبير من كتبها عن طريق الهبات، لعل أعظمها هبات هارفارد سنة ١٦٣٨م لجامعة هارفارد، واليهو ييل لجامعة ييل سنة ١٧١٨م وجورج بركلي لنفس الجامعة سنة ١٧٢٣م.

كانت الخدمة المكتبية مقتصرة على الأساتذة والموظفين وطلاب الدراسات العليا. ولم يكن يسمح بإعارة أكثر من كتاب أو كتابين معاً إلا في القليل النادر. وكان يدير أمور هذه المكتبات أحد الحاضرين الذي يعمل أميناً للمكتبة إلى جانب وظيفته كمحاضر في الكلية، وتفتح ساعات قليلة في الأسبوع واستعمال كتبها قليل إن لم يكن نادراً. وكان واجب أمين المكتبة الرئيسي في تلك المكتبات هو تحضير الفهرس.

سوابق المكتبة العامة:

لقد حققت المكتبات العامة أعظم خطوات التقدم في الولايات المتحدة الأمريكية، ذلك أن حركة المكتبات العامة في الولايات المتحدة جاءت نتيجة للتوسع الصناعي ولنمو التعليم الشعبي بما صاحبه من محو للأمية، وهو الأمر الذي ميز تقدم الحياة الأمريكية والذي نما على الأخص بخطى سريعة في أواخر القرن التاسع عشر.

أما في القرن السابع عشر فقد كانت المكتبات مشتتة قليلة لا يقصدها إلا فئة قليلة من رجال الدين والطلاب والأساتذة. ولقد أحست بعض مكتبات الكليات الأولى بمسؤولية اجتماعية معينة فسمحت لعدد محدود من المثقفين باستخدام إمكاناتها، وأصبحت هي نفسها «حافظة للكتب». ثم اتضح أمام أنظار العالم الجديد أن واجب حفظ الكتب يتلوه واجب آخر هو استخدام الكتب. ولذا سمحت مكتبات هذه الكليات باستعمال كتبها؛ وهي التي نشطت الحاجة إلى الكتب والتعريف بها، وهي التي قامت بإثارة اهتمام الجمهور بالكتب وتعميقه بحيث أدى الأمر في النهاية إلى بروز حركة المطالبة بالمكتبات العامة المجانية التي تعان وتصان وتغذى بواسطة الشعب ومن أجل الشعب.

ولقد ظلت المكتبات شبه العامة في المستعمرات الأمريكية نادرة ومشتتة ولا تعيش إلا لفترة قصيرة جداً. ومن الممكن أن نتعقب تقدم المكتبة العامة مباشرة من مكتبات الكليات

الأولى، ومن بداية المجموعات شبه الخاصة ومن مكتبات الاشتراك، حتى نشوء المؤسسة الشعبية التي نراها ماثلة أمامنا اليوم، وهي المكتبة العامة.

لعل أول محاولة جرت في المستعمرات الأمريكية لتأسيس ما يشبه المكتبة العامة هي وصية شخص غريب التفكير هو النقيب روبيرت كين من بوسطن المتوفي سنة ١٦٥٥م. ذلك أنه أوصى بمبلغ ٣٠٠ جنيه من أجل بناء عام في بوسطن يضم مكتبة ومتحفاً وغرفاً للبيع. ومنح هو نفسه مكتبته لهذا المبنى . وقد قبلت البلدة الهبة وبنت بناءً هو دار للحكومة أفردت به غرفة لتكون مقراً للكتب .

ولقد شب حريق هائل سنة ١٧١١م دمر قسماً كبيراً من الكتب، وعلى الرغم من أن البناء رمم وأصلح إلا أنه دمر نهائياً في حريق شب سنة ١٧٤٧م بعد أن بقي فترة من الزمن.

وقد بدأت بعض الكنائس منذ سنة ١٧٠٠م تلحق بها مكتبة فيها مجموعات كتبية لاستعمال الجمهور لها.

كذلك ظهر في المستعمرات في أواخر القرن السابع عشر نوع آخر من المكتبات كان معروفاً في إنكلترا منذ فترة؛ وهو ما يسمى بمكتبات الأبويات. ذلك أن رائد هذا النوع من المكتبات هو توماس بري Bray الذي قسم نشاطه بين انكلترا والمستعمرات. فقد أسس حوالي ٧٠ مكتبة في المستوطنات الأمريكية بين سنتي ١٦٩٥ و١٧٠٤م. وقد قصد مستعمرة ماري لاند وهناك أسس جمعية تنشيط المعرفة المسيحية التي أخذت على عاتقها، بعد ذهاب بري، متابعة مشروعه وأسست مكتبات في المدن الكبرى والمدن الصغرى وحوت هذه المكتبات ثلاثة أنواع من الكتب : كتب دينية متخصصة، وكتب دينية عامة؛ وكتب علمانية يمكن إعارة بعضها إعارة خارجية حسب رغبة القسيس. وإن مكتبة بري التي أسست في مدينة انابوليس من مستوطنة ماري لاند كان ينظر إليها على أنها مكتبة شبه عامة وحوت ١٠٩٥ مجلداً وقد وضعت في دار الحكومة حيث بقيت هناك إلى سنة ١٧٠٤م عندما شبت نار هائلة أتت عليها.

مكتبات النوادي الاجتماعية ومكتبات الاشتراك ومكتبات الإعارة

لقد توطدت الأحوال، مع مرور الزمن، في المستوطنات، وتحسنت شروط المعيشة فيها، وتكاثر السكان وازدهرت أحوالهم الاقتصادية، وارتفعت سويتهم العلمية والثقافية ووجد لدى كثير منهم أوقات فراغ كانوا يحبون صرفها بما يجلب لهم المتعة والسرور والمنفعة،

ولذا فقد ظهر عدد من الأفراد، بدأ يزداد مع الزمن في العدد والأهمية، أحبوا الكتب وأولعوا بالمطالعة، باعتبارها الوسيلة الرئيسية في سبيل المتعة والمنفعة وتحقيق الذات، وبدؤوا يبحثون عن طريقة يستطيعون بواسطتها إرضاء الطلب المتزايد على الكتب، وجاء هذا الحل في صورة ما سمي مكتبات النوادي الاجتماعية. ولا شك أن هذه الفكرة اتت إلى المستوطنات من الوطن الأم إنكلترا، لأن هذا النوع من النوادي وهذا النوع من المكتبات كان قد بدأ بالظهور آنذاك. كذلك فقد نمت في المستوطنات طبقة متوسطة، وجد عندها فراغ ووجد عندها رغبة في القراءة والمطالعة واصلاح النفس بالنفس، ولم يكن يرى أفرادها أي مبرر لأن يحتكر أفراد الطبقة الغنية في المجتمع الثقافة والمطالعة وإمكانية الاستفادة من المكتبات الخاصة، لذا فقد وجدت هذه النزعات لدى المستوطنين تعبيرها في النوادي الاجتماعية ومكتباتها. هذا وإن موجد هذه الفكرة في المستوطنات الأمريكية هو بنيامين فرانكلين من بوسطن. نشأ فرانكلين نشأة فقيرة ومارس عدداً من المهن أهمها الطباعة وظل طوال حياته يوقع باسمه ويردفه بلفظ الطباع. وقد ارتحل إلى انكلترا ومارس الطباعة فيها، ويبدو أنه اقتبس فكرة النوادي الاجتماعية من انكلترا. فلما رجع من لندن بدأ سعيه في إبراز فكرته إلى حيز الوجود. فأسس سنة ١٧٢٧م في فيلادلفيا ناديه المعروف واشترك معه في تأسيسه أحد عشر شاباً من فيلادلفيا وسموا ناديهم باسم جونتو Junto .

وقد عدَّت هذه المجموعة من الشباب بعد فترة أجود مدرسة فلسفية من أجل البحث عن الأخلاق والعلوم والمثل وجدت في بنسلفانيا. وقد اعتاد الشباب أن يجتمعوا مساء كل جمعة من أجل البحث والمجادلة. وقد تطلبت هذه النشاطات استعمال كثير من الكتب. ولما لم يكن لدى الجمعية مكتبة فقد اقترح فرانكلين أن يحضر جميع الأعضاء ما لديهم من كتب، وأن يضعوها تحت تصرف الفريق وذلك سنة ١٧٣٠م.

ولكن الخطة لم تنجح. فوضع فرانكلين خطة ثانية هي مكتبات الاشتراك. وقد تأسست أول مكتبة اشتراك في أمريكا سنة ١٧٣١م على يد فرانكلين نفسه وتحمل أفكاره. وصدرت بها وثيقة رسمية سنة ١٧٤٢م باسم مكتبة شركة فيلادلفيا. وكانت هذه المكتبة رائدة في حقل مكتبات الاشتراك في المستوطنات و«أم جميع مكتبات الاشتراك في أمريكا الشمالية» حسب كلمات فرانكلين نفسه. وقد سمحت الخطة لأي سيد متمدن أن يطالع الكتب في المكتبة، ولكن الإعارة الخارجية لم يسمح بها إلا للمشتركين فقط. وقد قلدها كثير من المجتمعات، وكان فرانكلين فخوراً بها وواثقاً من نجاحها وانتشارها. وقد

أثبت البحث الحديث أن فكرة فرانكلين ومشروعه كان له تأثير شديد في تأسيس وإيجاد المكتبات الأخرى من نفس النوع في بقية المستوطنات. ولا تزال المكتبة التي أسسها فرانكلين في الوجود وتحمل نفس الاسم الذي سماها به مؤسسها، وأضيف إليها فيما بعد كثير من الهدايا. وهي تعد من أهم المعالم المكتبية في أمريكا الشمالية .

وقد سمح فيما بعد، لمن ليسوا مساهمين في رأس مال الشركة، أن يشتركوا في المكتبة لقاء رسم محدد. وهذا هو أصل التسمية. كذلك كان يسمح لغير المشتركين باستعارة الكتب استعارة خارجية على أن يدفعوا رهناً يساوي ثمن الكتاب المعار. بالإضافة إلى رسم إيجار الكتاب.

وقد انتشرت فكرة تأسيس مكتبات اجتماعية في عدد كبير من المدن أولاً على ساحل الأطلنطي، ثم انتقلت إلى الداخل بعد حرب الاستقلال.

ويمكن أن نلحق بمكتبات الاشتراك هذه مكتبات الهيئات الاجتماعية التي وجدت في مدن مستوطنة ماساشوسيتس. ذلك أنها كانت عملياً، مكتبات اشتراك تخص أعضاء نادٍ أدبي .

وكانت هذه المجموعات الصغيرة من الكتب تيسر للقراء خارج نطاق النادي. وقد أدى هذا الإحساس إلى إنشاء مكتبات مدن نيو إنغلند، وهي التي سبقت مباشرة المكتبات العامة الحديثة الحقيقية التي نعرفها والتي تمول من أموال الضرائب العامة. وقد وجد عدد قليل من هذا النوع من المكتبات في عدد من المدن الأمريكية.

وهناك نوع آخر من مكتبات الجماعات، تختلف في طابعها اختلافاً تاماً، فقد خططت لتخدم نوعاً آخر من الجماعات هي مكتبات التجار والروابط التجارية. وقد حقق العديد منها نجاحاً باهراً وتقدماً حياً. ومن الأمثلة المعروفة على هذا النوع من المكتبات مكتبة جمعية نيويورك. أسست هذه المكتبة سنة ١٧٥٤م وساهم في بنائها ونفقاتها جميع الأعضاء واشتروا كتباً أحسنوا انتقاءها ووضعوا هذه الكتب في قاعة المدينة. وقد صدرت وثيقة رسمية بتأسيسها باسم مكتبة جمعية نيويورك. وكانت خدماتها ذات نفع لكثير من الطلاب والكتاب. ويمكن القول بشكل عام إن المكتبات التي يطلق عليها اسم «مكتبات التجار» إنما اسستها الشركات التجارية أو دور الأعمال لتهيئ فرص القراءة لمستخدميها.

كذلك ظهر في تلك الآونة «المكتبة المتجولة» التي تحمل في ثناياها بذور «المكتبة المتنقلة» الحديثة. كانت هذه المكتبة المتجولة تتنقل بين مدينتي كيتري ويورك من ولاية ماين.

هذا وإن مكتبات الاشتراك لم تستطع أن تلبي حاجات القراء العاديين للقصص والخيال؛ وقد سد هذه الرغبات مكتبات أسست على مبادئ اقتصادية وكانت تهدف لأن تجمع أكثر القصص إثارة وأكثرها شعبية والتي صدرت آنياً. وهي مكتبات الإعارة التي بدأت قبل الثورة الأمريكية مباشرة.

ليست الفكرة جديدة وقد أتت إلى المستوطنات من بريطانيا وأوروبا. وقد أسس هذا النوع من المكتبات أصحاب المطابع أو أصحاب محال بيع الكتب، وجعلوا الكتب جاهزة للإيجار لقاء رسم ضئيل، إما لمرة واحدة، أو لعدد من الكتب في زمن معين. ولعل أول من بدأ هذا النوع من المكتبات هو وليام ريند Rind من أنا بوليس. ذلك أنه أسس مكتبة إعارة هناك سنة ١٧٦٢م، وقد سمح للمشتركين لديه أن يستعيروا كتابين دفعة واحدة لمدة أسبوع واحد لقاء رسم سنوي مقدره ٢٧ شلناً. ولم يكن مشروعه ناجحاً إذ انهارت مكتبته سنة ١٧٦٤م.

ولكن فكرته انتشرت بعد ذلك وتأسست مكتبة إعارة بعد سنة واحدة سنة ١٧٦٥م في مدينة بوسطن أسسها جون مين Mein واستمرت تعمل حتى سنة ١٧٧٠. كما أسس مكتبات إعارة مماثلة في فيلادلفيا ونيويورك وتشارلستون. وقد حققت مكتبات الإعارة هذه أكبر نجاح لها خلال نصف القرن الذي تلى الثورة الأمريكية. وقد أخذت مكانها إلى جانب محال بيع الكتب، إذ أن هذه المكتبات كانت تمارس الإعارة بأجرة كما كانت تقوم ببيع الكتب في نفس الوقت.

ومن أعظم سوابق المكتبة العامة الحديثة أهمية، سواء في ذاتها أو بالنسبة لأثرها على حركة عمومية الاستخدام الحر للمكتبات هي المكتبات شبه الخاصة والمكتبات المعانة. فقد استطاعت بعض هذه المكتبات أن تحيا حياة مستقلة، فأصبحت اليوم آثاراً خالدة للعلم والقيمة المتأصلة.

كما تحول بعضها الآخر أو اندمج في المؤسسات العامة، ومن أمثلتها مكتبة لوغان في فيلادلفيا. وهي عبارة عن مجموعة خاصة من الأدب الكلاسيكي انضمت إلى مكتبة

شركة فيلادلفيا. وما زال اندماج مكتبتي أستور ولينوكس مع مكتبة نيويورك للاستعارة المجانية، لتصبح كلها مكتبة نيويورك العامة، يمثل طرازاً آخر تحتفظ فيه المكتبات المعانة بسيادتها، في حين أن إعارة الكتب للجمهور وأنواع النشاط الأخرى المتصلة بها تتم تحت الإشراف نفسه في إدارة مستقلة تموَّل من الاعتمادات العامة.

obeikandl.com